خطبة الجمعة

التي ألقاها أمير المؤمنين سيدنا ميرزا مسرور أحمد أيده الله تعالى بنصره العزيز

الخليفة الخامس للمسيح الموعود والإمام المهدي عليه السلام

يوم ٧/٠٦/٢٠١٣

في مسجد بيت الفتوح بلندن

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك لـــه، وأشهد أن محمّدًا عبده ورسوله. أما بعد فأعوذ بالله من الشيطان الرّجيم. ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ* الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾، آمين.

﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ * الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (البقرة ٤٦-٤٧)

الأمر الأساسي الذي وجّه الله تعالى أنظارنا إليه في هذه الآية وفي آيات أخرى في القرآن الكريم لنيل قرب الله تعالى هو التواضع والانكسار. إن أساس جميع أحكام القرآن الكريم بما فيها أوامره ونواهيه هو التواضع، أو يمكن القول بتعبير آخر بأن العمل بأوامر الله تعالى يحدو بالإنسان إلى التواضع. إذا كان المؤمن عاملا بأوامر الله تعالى في الحقيقة ينشأ فيه التواضع لا محالة. يقول المسيح الموعود عليه السلام في شرح الآية: ﴿وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾: إن كلام الله ﷻ يزيد الإنسان تواضعا. يدّعي المرء أنه آمن بكلام الله واستوعبه ويعمل به ولكن لا يمكن أن تكون عباداته وأعماله الأخرى في انسجام مع تعليم القرآن الكريم ما لم يتحلَّ الإنسان بالتواضع لأن تواضعه هو الذي يوصله إلى مستوى أعلى من العبادات والأعمال الصالحة. إن الأنبياء يُبعثون إلى العالم لنشر هذه الرسالة وترسيخها في قلوب الناس وأذهانهم ويُثبتون لهم ذلك بعملهم وأسوتهم. وإن أمثل أسوة في هذا المجال هي الأسوة الحسنة لسيدنا رسول الله ﷺ. يقول المسيح الموعود عليه السلام في هذا الموضوع:

إن الله تعالى رحيم وكريم، ويربّي الإنسان من كل الجوانب والنواحي ويرحمه، وبسبب رحمه يُرسل أنبياءه ورسله لينقذوا الناس من حياة ملوّثة بالذنوب. ولكن الاستكبار مرض خطير جدا ومَن أصابه كان له بمنـــزلة موت روحاني. أعرف يقينا أن هذا المرض أسوأ من القتل. المتكبر يصبح أخا الشيطان لأن الاستكبار هو الذي أخزى الشيطان وأذله،

لذا يجب على المؤمن ألا يكون مستكبرا بل ينبغي أن يتسم بالتواضع والانكسار. وهذه ميزة المبعوثين من الله تعالى. (أي هذه الصفة توجد في المبعوثين من الله تعالى أكثر من غيرهم إذ يكون تواضعهم بالغا ذروته)

يتابع المسيح الموعود عليه السلام قائلا: ويوجد فيهم التواضع إلى أعلى الدرجات، وقد وُجدت هذه الصفة الحسنة في رسول الله ﷺ أكثر من غيره على الإطلاق. ذات مرة سُئل خادمه كيف هي معاملة النبي ﷺ معك؟ قال: الحق أنه يخدمني أكثر مما أخدمه أنا. اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد وبارك وسلّم.

يقول المسيح الموعود عليه السلام: هذا هو النموذج للأخلاق السامية والتواضع. والحق أن الخدام يكونون أقرب الناس إلى المرء عادة لأنهم يكونون معه دائما، لذا إذا أُريدَ الاطلّاع على تواضع المرء وصبره وجلَده يمكن معرفته منهم.

هذه هي أسوة ذلك الشارع الكامل الذي نصح اللهُ الأمة أن يتأسَّوا بأسوته. عندما يأمرنا القرآن الكريم بالعمل بالأوامر التي وردت فيه نجد النموذج الكامل في شخص رسول الله ﷺ ماثلا أمامنا. فكان النبي ﷺ يحتل المستوى الأعلى في العبادات أيضا حيث أمره الله تعالى أن يعلن للناس: إن عباداتي هي لله وحده، فلم يعد لي شيء بل صار كل شيء لله تعالى، لا أعمل شيئا لنفسي ولا أريد شيئا لنفسي، بل إن نصب عيني هو الفوز برضا الله تعالى فقط. إن مدار حياتي هو ذات الله تعالى. إن إعلان: ﴿قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين﴾ إعلان عظيم لا يمكن أن يبلغ مستواه السامي أحد سوى رسول الله ﷺ. ثم هناك صفة الصبر، فيقول الله تعالى: ﴿وما يُلقَّاها إلا الذين صبروا وما يلقّاها إلا ذو حظ عظيم﴾ أي أن هذه المرتبة يُعطاها الذين يصبرون صبرا عظيما على الرغم من مواجهتم المظالم، أو يعطاها الذين وهبهم الله تعالى حظا عظيما من الحسنات. عندما نقرأ سوانح سيدنا رسول الله ﷺ نجد في سيرته المقدسة وحدها نماذج عليا للصبر على مشاكل عائلية وكذلك على مصائب ومعاناة صُبَّت عليه ﷺ وعلى جماعته. انظروا مثلا كيف ضرب ﷺ مَثلا أعلى في الصبر في سفره إلى الطائف، وقد أنقذ هذه المدينة من الدمار نتيجة صبره الجميل، مع أن الله تعالى خيّره في ذلك، ولكنه قال بسبب صبره العظيم: لا أريد تدمير هذا القوم، وذلك على الرغم من إصابته بالجروح ومواجهته خبث أهل الطائف البالغ منتهاه. كذلك عندما اشتدت مظالم القوم على أتباعه ﷺ طلبوا منه بعد تعرضهم للإيذاء الشديد أن يدعو ﷺ على أناس معينين، ولكن لم يقل النبي ﷺ على طلبهم: لا بأس سأدعو عليهم، بل دعا لهدايتهم وبذلك نصح بأسوته ودعائه أتباعَه والمؤمنين به بالصبر وفي الدعاء بصبر ووضّح لهم بلسان حاله أن الانتقام ليس في الدعاء عليهم بل الانتقام الحقيقي يكمن في ضرب أمثلة عليا للصبر والجلَد.

والمعلوم أننا نرى أمثلة عليا للتواضع في كل لحظة من حياته ﷺ، وقد ذكرتُ مثال ذلك في مقتبس اقتطفته من كلام المسيح الموعود عليه السلام. إذًا، فقد وجدنا في شخصه ﷺ أسوة كاملة في مجال التقرب إلى الله تعالى وقد أمرنا الله عز وجل بالتأسي بها، ولفت أنظارنا إلى عدة أوامر مختلفة وقال بأنكم إذا عملتم بها حصلتم على قربي. ولكن إلى جانب هذه الأسوة وهذا الأصل أشار إلى مبدأ آخر أيضا وهو أن الإنسان ينال قرب الله تعالى نتيجة التأسي بهذه الأسوة إذا تحلّى بالتواضع، ولا ينال هذا المقام إلا المتواضعون، والذين يتأسون بأسوة ذلك الإنسان العظيم الذي قال لشخص ضعيف كان متهيبا منه ما مفاده: لا تقلق، أنا أيضا بشر مثلك، وإِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ، وكانت تعيش مثل بقية الناس.

فيقول الله تعالى يجب على المؤمنين أيضا أن يتواضعوا لينالوا قرب الله تعالى. الآيات التي تلوتها في مستهل الخطبة بيّن الله تعالى فيها سبل التقرب إليه ﷻ بواسطة التواضع، فقال بأنكم لا تستطيعون أن تنالوا قربي ما لم تحسبوا أنفسكم شيئا لا حقيقة له ولا أهمية له قط، وما لم تسعَوا جاهدين للوصول إلى أعلى مستويات التواضع. ولا يمكن للإنسان أن يسلك مسالك أرشد الله تعالى إليها ولا يمكنه العمل بأوامر الله تعالى ما لم يتواضع نتيجة فضل الله تعالى. لذا فقد أمرنا الله تعالى أن نستعين به متواضعين ونسعى للحصول على فضله ﷻ.

إن جميع الأمثلة التي بينها الله ﷻ لشتى الأقوام، فمن سنة الله ﷻ أنه أحيانا يأمرنا مباشرة وأحيانا يذكر أحوال بعض الأقوام القديمة، ويبين ظروف بعض الناس أنهم تورطوا في كذا من الأعمال وإن لم يكونوا كذلك لتحقَّق إصلاحُهم، ففي ذلك درسٌ للمؤمنين أيضا أن ما أُمروا به مباشرة هو وحده لا يحتوي على النصح لهم بل كل ذكْر ورد في القرآن الكريم هو نصيحة لهم. فهنا أيضا قال تحلَّوا بالتواضع واسعوا للحصول على فضله، فقد قال ﷻ اسألوا الله فضله بتواضع، فما لم تفهموا روح "استعينوا" لا يمكن أن تتبين لكم سبل الحسنات والبر، ولن تنشأ روح "واستعينوا" إلا حين يتولد الخشوع والتواضع، حين يكون لديكم إحساس وحيد بأن أي حسنة لكم لا يمكن أن تجعلكم أهلا لأي إنعام، وإنما الفضل الإلهي وحده إذا نزل عليكم فيمكن أن يحسِّن دنياكم وعقباكم. فلا بد من هذه الاستعانة بالله بمنتهى التواضع. ربنا، تعال لنصرتنا برحمتك وفضلك، وعلِّمنا سبل رضاك، ووجِّهْنا إلى طرق الصبر والعبادة التي تعجبك.

ثم قال إذا كنتم تسألونني فارفعوا معايير الصبر أيضا بإظهار التواضع، فالصبر عند أهل المعاجم أن يتحمل المرء الأذى بوقار دون إبداء أي تذمر أو شكوى، بل عند البعض الصبر هو أن لا يبدي المرء أي فرق في الأفراح والأتراح، وأن يبقى راضيا مبسوطا في كل حال، كما قال سيدنا المصلح الموعود ﷺ في شطر بيت وهو يخاطب ربه "إننا راضون بما يُكسبنا رضاك" أي أن على الإنسان أن يرضى بكامل القناعة بما يرضى به الله ﷻ، وأن يحافظ على وفائه وقوة إيمانه من أجل الله، ويتمسك بالله ﷻ فقط، ويتوكل عليه وحده، ويستمسك بتعليم الله بشدة، فهذه هي حالة الصبر التي يقول الله ﷻ عنها إنكم إذا تمسكتم به فسوف تنالون أفضالي، فالأدعية في أيام الصبر هذه ستُكسبكم أفضالي. فالله ﷻ لا يترك عباده المخلصين ليضيعوا، حينما يكون الاعتماد الكلي على الله تعالى فهو نفسه يجزي مثل هذا الصبر، فقد قال: عندما يتحقق لكم هذا الصبر والثبات يجيب الله أدعيتكم، ثم لا تكتفوا بالصبر وحده بل لا بد من أداء حقوق الصلاة أيضا. فما هي الصلاة؟ الصلاة أولا هي الصلاة المعروفة والمراد منها أيضا الأدعية التي يرددها الإنسان ماشيا وساكنا، والخضوع لله ﷻ أيضا، ورفْع الطلبات إليه بمنتهى الخشوع، وسؤال الفضل أيضا. فقال: لا يمكن أن يؤدي حق الصلاة على هذا النحو إلا من كان سالكا على دروب التواضع الكامل، الذي لم يبق فيه أي رمق من الكبر، ولم يبق فيه أي نصيب من الأنانية والاستكبار فالذي لا يحظى بهذه الصفات فليست صلاته صلاة حقيقية. فمهما يصلِّ في الظاهر لا يعبأ الله به وإنما يعبأ الله فقط بأدعية أولئك الصابرين والمصلين الذين يتقدمون في التواضع، وهم على علاقة قوية بالله لا تنقطع، ففي هذا العصر الراهن قد قال الله ﷻ للمسيح الموعود عليه السلام بصفة خاصة: "لقد أعجبتْه طرقُ تواضعك" فطرق التواضع هذه فَتحتْ آفاقا جديدة للتقدم والرقي، فنحن الذين نؤمن به عليه السلام إذا كنا نريد الفوز

بأفضال الله ﷻ وإذا كنا نريد الحصول على نصيب من نصرة الله وإذا كنا نريد أن نأكل ثمار صبرِنا وإذا كنا نريد أن نشاهد مشاهد إجابة أدعيتنا، فلا بد من الخضوع لله ﷻ والخرور على عتباته بتواضع وصبر، فهذا ما سيحمينا من قوى الشيطان والطاغوت، وهو الذي سيقوي إيماننا، ويُكسبنا قرب الله تعالى. لكن الله ﷻ يقول: لا تظنوا أن التحلي بالتواضع والخشوع أمر سهل هيِّن، فهناك أنواع الأنانية والعناد والكسل والأطماع المادية والإغراءات الدنيوية تحول دون الفوز بهذه المرتبة، فقد قال: ﴿إنها لكبيرة﴾ أي ليس هذا سهلا بل هو أمر ثقيل جدا. فجميع الأمور التي ذكرتها بالإضافة إلى أعمال أخرى كثيرة تمنع الإنسان من أداء حق عبودية الله بالروح الحقيقية للصبر والصلاة بتواضع وخشوع. علينا أن نذكر دوما أن الله ﷻ يريد أن يُظهر عبدُه الصبر والصلاة وينال معايير العبادة حيث لا يخطر بباله غيرُ الله للحظة واحدة، ويكون قلبه عامرا بذكر الله حتى خلال إنجاز الأعمال المادية أيضا.

فقد قال الله ﷻ نفسه إن خلق هذه الحالة ليس أمرا سهلا هينا، بل هي كبيرة، ويستحيل حملُ هذا الشيء الثقيل دون الفضل الإلهي لذا فاستعينوا به، فاركعوا له لنيل أفضاله، وابذلوا قصارى الجهود إلا أنكم لن تنالوا هذا النصر إلا إذا اتصفتم بالتواضع والخشوع. فإذا نشأ لديكم يقينٌ بلقاء ربكم كما قال ﴿أنهم مُلاقو ربهم﴾ عندها سنكون مؤدين حق الصبر والدعاء، وسنستجيب لأوامر الله ﷻ ونضع التأسي بأسوة النبي نصب أعيننا كل حين وآن، ولن نكون متأسين بأسوة النبي ﷺ لمنفعتنا الشخصية بل بدافع الحب والعشق له ﷺ، ونكون ساعين للعمل بكل سنة النبي ﷺ مُشعلين نار حبه في قلوبنا، فهذه الحالة الحقيقية تجعل المؤمن مؤمنا صادقا. فسعيكم الصادق للتأسي بأسوة النبي ﷺ سيجعلكم مصداق "يحببكم الله" كما قال الله ﷻ. وهذا ما سيزيدكم حبا لله ﷻ وهذا الحب بدوره يُكسب الإدراك الحقيقي لـــ ﴿أنهم إليه راجعون﴾. بحيث يصبح الإنسان ساعيا للحصول على رضوان الله ﷻ. فحين ندعو الله تعالى قائلين: نحن لا نمثل شيئا يُذكر، وإنما نرجوك أن تتقبل أدعيتنا فاخلقْ فينا التواضع والخشوع، وارفعْنا إلى هذا المستوى. ثم علينا أن نتمسك بالصبر والصلاة أيضا ثم نلتمس من الله أن يعفو عنا إذا كانت أي شائبة نفسانية في أدعيتنا وجهودنا أو في تواضعنا، كيلا يكون إحساسنا بتواضعنا خدعة النفس فحسب. فأَدْخِلْنا في الخاشعين الحقيقيين، وعُدَّنا من المتواضعين المنكسرين، الذين قال فيهم رسولك الحبيب ﷺ بأن الله تعالى يرفعهم إلى السماء السابعة بسبب تواضعهم، ووفِّقْنا لأن نعيش عيشة أرادها لنا المسيحُ الموعودُ، العاشقُ الصادق لرسولك المحبوب ﷺ، ووفِّقْنا لأن نكون عند حسن ظنه بجماعته.

أقرأ على مسامعكم الآن بعض ما قاله المسيح الموعود عليه الصلاة والسلام:

على جماعتنا أن يتذكروا أن الإثم الصغير، مهما كان صغيرا، إذا تعلَّق برقبة المرء دفَعه إلى الكبائر رويدا رويدا. تترسخ في المرء شتى العيوب بطريقة خفية حتى يصعب عليه التخلص منها، فيعدّ نفسه كبيرًا جراء سوء أعماله، ويصاب بالكبر والزهو، مع كونه مخلوقًا عاجزًا جدًا. فالخلاص محال ما لم يعدّ المرء نفسه أحقر الناس. لقد صدَق الصوفي "كبير" إذ قال في بيت شعر له معناه: كان جيدًا أني من أداني القوم وأسلّم على الجميع احتراما، ولو كنتُ من أسرة عالية لما حظيتُ بلقاء الله تعالى. يعني أنني أشكر الله تعالى أنني وُلدتُ في أسرة فقيرة، إذ لو كنتُ من أسرة عالية النسب لما وجدت الله تعالى. فإذا كان الناس يتفاخرون بعلو نسبهم فإن "كبير" هذا يشكر الله تعالى أنه وُلد في بيتِ حائكٍ.

لذا فعلى الإنسان أن يفكر دائمًا في حقيقته، ويدرك أنه عاجز ضعيف جدًا. كل إنسان مهما كان شريف النسب، لو فحص نفسه بكل طريق، لوجد أنه أكثر الكائنات ضعفًا وعجزًا، شريطة أن يكون ذا بصيرة. لن يدخل الإنسان في ملكوت الله أبدًا أبدًا ما لم يعامل امرأةً عجوزا بأخلاق يعامل بها أو يجب أن يعامل بها أحدًا من ذوي النسب العالي والمكانة السامية، وما لم يكفّ عن الكبر والزهو والعُجب بكل أنواعه وأشكاله. إن الأخلاق السامية كلها تتحول إلى الرذائل بشيء من التقصير. إن الباب الذي فتحه الله تعالى لخير خلْقه لهو باب واحد أعني الدعاء، وعندما يدخل أحد في هذا الباب بالبكاء والابتهال فإن المولى الكريم يخلع عليه رداء الطهر والقداسة، ويجعل عظمته مستولية عليه بحيث يفرّ من السيئات والمنكرات بعيدًا جدًا. لماذا لا يتجنب الإنسان الإثمَ مع إيمانه بالله تعالى؟ إنما سببه أن فيه نوعًا من الإلحاد، ولا يتمتع بإيمان ويقين كاملين بالله تعالى، وإلا فكيف يمكن لأحد أن يرتكب المعصية وهو يعلم أن هناك من سيحاسبه وأنه قادر على أن يدمّره في لمح البصر. من أجل ذلك ورد في الحديث الشريف: لَا يَسْرِقُ السارق حِينَ يَسْرِقُ وهو مؤمن ولَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ (أي أن السارق المؤمن والزاني المؤمن لا يكون مؤمنًا وقت المعصية رغم إيمانه) إنما ينجو الإنسان من السيئات حين تتيسر له البصيرة والمعرفة بأن غضب الله يسقط كالبرق المهلك ويهلك كالنار المدمرة، عندها تستولي على قلبه عظمة الله بحيث تذوب من باطنه الأفكار السيئة وتختفي تلقائيا. (يعني: أنه إذا تيسرت للمرء المعرفة والبصيرة بأن غضب الله يهلك الإنسان، فتستولي عليه عظمة الله فيتخلص من الأفكار السيئة وينجو من الأعمال الخاطئة، ويتحسن باستمرار) فالنجاة في المعرفة (أي اسعوا لنيل معرفة الله) فإن المعرفة تزيد حبًا، لذا فلا بد من المعرفة قبل كل شيء. هناك أمران تزيدان حبًا، الحسنُ والإحسان. إن الذي ليس مطّلعًا على حسن الله وإحسانه فأنى له أن يحبّ الله تعالى. قال الله تعالى (ولا يدخُلون الجنّةَ حتى يَلِجَ الجَمَلُ في سَمِّ الخِياطِ)، أي أن الكافرين لن يدخلوا الجنة حتى يمرّ الجمل من ثقب الإبرة. إن المفسرين يفسرون هذه الآية بمفهومها الظاهري، أما أنا فأقول إنّ على طالب النجاة ترويضَ جَمَلِ نفسِه الجموحِ بالمجاهدات بحيث يصبح نحيلا ويمرّ من ثقب الإبرة. ما دامت النفس سمينة نتيجة استمتاعها بملذات الدنيا وشهواتها، فلن تقدر على دخول الجنة مرورًا بطريق الشرع المقدس. اقتلوا ملذات الدنيا وكونوا نحفاء من خشية الله، عندها تمرّون بهذا الطريق، وهذا المرور سوف يوصلكم إلى الجنة ويكتب لكم النجاة في الآخرة.

أسأل الله تعالى أن نبلغ جميعًا، جماعةً وأفرادًا، أعني كل فرد منها، مِن التواضع والانكسار ما يجعل صبرنا صبرا حقيقيا وعباداتِنا عباداتٍ حقيقيةً مقبولةً عند الله تعالى، فلا نجني ثمار صبرنا وعباداتنا في الحياة الآخرة فقط، بل نجنيها في هذه الدنيا أيضًا بحيث يرى العالم ويشهد بأن هذه الجماعة التي أنشأها المسيح الموعود عليه الصلاة والسلام هي الجماعة التي تأتي إلى الله متواضعةً، وتؤدي حق عبادة الله فعلاً، وتعمل بكل حكم من أحكامه بمنتهى التواضع، وتسعى للفوز برضاه تعالى، وتُحدِث ثورة في العالم بالصبر والدعاء، وألا تخضع أمام أهل الدنيا عند حلول المحن والمصائب بل إلى الله الذي يملك القوة كلها، ويقدر على هزيمة العدو رغم كل ما عنده من قوة وعتاد في الظاهر. عندما ترى الدنيا هذه المشاهد فستضطر للقول إن هؤلاء القوم هم المؤمنون حقًا، فمن أراد أن يرى أهل الله المقربين فلينظر إلى هؤلاء القوم، فهم الذين يُرى فيهم وجهُ الله، وهم الذين يحظون بحب ربهم، وهم الذين يستطيعون أن يهدوا العالم إلى سبل لقاء الله.

ندعو الله تعالى أن يبلُغ كل واحد منا هذا المقامَ، ويزداد حبًا لله تعالى متواضعًا، كما قال المسيح الموعود عليه الصلاة والسلام، لينال النجاة في الآخرة. عليكم أن تدعوا الله تعالى لأبناء الجماعة في باكستان نظرًا لأوضاعاهم الصعبة بأن يكشف الله كروبهم، ويزيدهم إيمانًا وتعلقًا بالله تعالى. على المسلمين الأحمديين في باكستان أن يدعوا لأنفسهم كثيرًا من أجل إيمانهم وإيقانهم بوجه خاص. وفّق الله الجميعَ للفوز بقربه تعالى. آمين.